

البحث عن فلسطين والطريق إليها بحراً: كسر الحصار عن غزة كسرٌ لحصارنا

علي الكنيس، تونس

ضدَّ الحدود: من طريق البرِّ إلى شقِّ البحر

عندما عادت قافلة الصمود البرّية وسط ليبيا، بعد أن مُنعت من مواصلة المسير نحو الشرق الليبي للوصول إلى الحدود المصرية ثم منها إلى رفح المصرية لكسر الحصار على قطاع غزة، بدأت تختمر فكرة أخرى: أن ننتقل إلى غزة بحراً بأسطول سفن رفضاً للإقرار بقرار النظام العربي الرسمي الذي منعنا عن غزة في نقطة أبعد من الجغرافيا وهي مدينة سرت.

الخيال أصبح أوسع ما بعد القافلة البرّية،¹ توسَّع مجال الممكن حينها. أعدنا اكتشاف الطريق مرة أخرى. وأصبح المستحيل ممكناً أكثر مما ينبغي. بدأ الأسطول يستعدُّ للانطلاق من موانئ تونس وإسبانيا وإيطاليا من جنوب الشمال ومن جنوب العالم.² وفيه يسير على طريق فلسطين نحو غزة بشر عاديون جداً لم يكتفوا أن يكونوا مشاهدين لنظام الإبادة الإجرامي الصهيوني وقَرروا أن كلفة الصمت أكبر من أن تُحتمل وأن التحرك نحو غزة ممكن بالفعل. إن لحظة العبور البرّي ومحاولة كسر الحصار عن غزة إنما هي لحظة مفصلية تختبر الفعل الشعبي خارج سياقات يصبح فيها المستحيل ممكناً منذ انطلاق المسير نحو غزة من تونس والجزائر وليبيا. فبتكاتف الجماهير والحشود العابرة لجغرافيا الحدود تقلَّصت المسافات، وأصبحت فلسطين أقرب مما نظن. وعلى الرغم من المنع والتوقُّف في وسط ليبيا، فإن التجربة أعطت زخماً شعبياً للانخراط الجماهيري في فكِّ الحصار عن غزة لتنتقل، فيما بعد، حملة تنظيم أسطول الصمود البحري تجاوزاً للمنع البرّي.

تحولت تونس إلى ساحة لقاء عالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني وإلى فضاء مفتوح للانطلاق من أجل كسر الحصار عن غزة في مواجهة التواطؤ والصمت الدولي مع حرب الإبادة الصهيونية. استعادت، لو للحظات لكنها تاريخية، موانئ قَمَرْت، وبنزرت، وسيدي بوسعيد، موقعها في حركة الفعل. تسترجع سيدي بوسعيد، هذه القرية الجبلية، روحية المقاومة التي منحها ولي الصالح اسمه منذ أن رابط فيها للتصدّي للغزو الإسباني، وتصبح ساحة شعبية بعد أن كانت واجهة سياحية للبلاد فقط. هنا نَقَدَت "إسرائيل" ونفَذَت اغتيال خليل الوزير "أبو جهاد" سنة 1988 أمام أعين نظام بن علي الذي خلعتة الثورة في العام 2011، لتتجلّى بعض حقائق هذا العدوان والتواطؤ

الرسمي حينها. لهذه الصخرة المطلة على البحر تاريخ مع عدوان الاحتلال. هنا أيضاً، وتحت هذه الصخرة وفي مواجهة البحر حيث الميناء الترفيهي، تحوّلت الشوارع المحيطة به والمؤدية له إلى طريق يسلكه العابرون إلى فلسطين وكل من أراد أن يودّع السفن المقبلة على فلسطين وإليها في رحلتها لكسر الحصار عن غزة.

عندما تعرّضت إحدى سفن أسطول الصمود العالمي لهجوم بطائرة مسيرة ببصمات عدوان "إسرائيلي" قديم متجدّد، هرع الناس جميعاً، مواطنون ومتضامنون من كل العالم من دول عربية وأجنبية، نحو الميناء الذي سيظلّ لأيام ساحة تجمعهم ما قبل الانطلاق لعلهم يحمون السفن بتواجدهم هناك خاصةً مع تكرار الاستهداف ثانيةً وضعف الموقف الرسمي الذي لم يقرّ بوجود اعتداء خارجي. ثأر قديم بدأ يتجدد، فما زال المحتل الصهيوني يطاردنا أينما كنّا، والوقوف في مواجهته دفاع عن وجودنا أمام هذا التوغّل والتوسع الزاحف، والمعركة مع العدو لا تنفك عن معارك تحرّنا الداخلي. وما زلت، أنا، أنشد العبور نحو فلسطين فبعد أن امتنع البر، سلكت البحر.

موانئ للحرية ولا مرافئ للتحرر بعد أو في البحث المتجدّد عنها

أبحرت سفينة يامن/ياسر جرادي نحو غزة، وهذه سفن ألما، وآسيا، ومالي/دير ياسين وفارس خالد. تستعيد السفن الأسماء وتحيي الرموز وتاريخاً من الدم والمجازر والصمود والتضامن المفقود الذي أن له أن يجد طريقه. أعاد الأسطول مدن فلسطين وشهداءها ومن جعلوها بوصلة، وذاكرة مجازرها منذ النكبة—دير ياسين، وأنس الشريف، وعمران المقدمي، لكسر الحصار عن غزة وعن الذاكرة والشهداء الذين تطاردهم دولة تراهن على نسيان لا يتحقّق بل تغدّي الذاكرة التي ما فتئت تولد من جديد. يعرّي الطريق بحراً لكسر الحصار عن غزة كلّ التناقضات بين الشمال والجنوب، فنستكشف خرائط الاستعمار والحدود على سفننا وأجسادنا. بعد أن انطلقنا، اعترضت السفن، ومنها سفينتنا، عاصفةً وأوقفت مؤقتاً مسيرنا مرّتين. اضطررنا أن نحتمي بجزيرة بونتالاريا في الليلة الأولى أو ما تبقى منها. ألزمتنا تقلّب الطقس بعدها دخول جزيرة مالطا في صباح اليوم الثالث من الإبحار. حينها، أصبحت سفينتنا جزيرة وسط الميناء، حيث اختارت لنا إدارة الميناء هذا المكان دون أيّ إمكانية لمغادرة السفينة، إذ ترسو الآن السفينة خارج الرصيف حيث المراكب السياحية. نحن في قلب الميناء، ويحيط بنا الماء من كل جانب، ويحيط بالماء سور مدينة فاليتي وبوابة ميناء يفتح على المتوسط.

طلبنا الرسو على الرصيف لإتمام صيانة السفينة، فاستجيب لهذا الطلب بعد أن رُفض بداية. كان علينا أن نستعدّ خلال هذه الاستراحة التي فرضتها علينا العاصفة، وبعض الترتيبات الفنية، لإصلاح عطب أصاب سفينتنا لمواصلة الإبحار. أمام الحصار الرسمي، انهال علينا التضامن من قبل تونسيين وفلسطينيين وأردنيين مقيمين هنا، وزودونا بما نحتاجه لكي نشعر أننا لسنا وحدنا، وميكانيكي مصري التقيناه في الميناء يعمل في إحدى سفن الصيد ساعدنا في إصلاح السفينة. أراح عنا هذا الالتفاف الضيق الذي أصابنا مع الحصار الذي فرض على السفينة في الميناء. تبادلنا العفوية مع من تعاملنا معهم من المالطين لخمسة أيام، ما أسبغ علينا أجواءً من الارتياح كما لغة المالطين التي للوهلة الأولى تبدو قريبة إلى اللهجة التونسية وإلى لساننا.

في هذه الأثناء، كانت تواصل سفن أسطول الصمود المغاربي وأسطول الصمود العالمي إبحارها نحو غزة. وصلنا متأخرين إلى ميناء بارتابالو في أقصى جنوب شرق صقلية بعدما انطلقنا على متن سفينة يامن/ ياسر جراي مرةً أخرى. سبع مع خمس سفن أخرى هنا لنواصل معاً العبور نحو فلسطين بحراً ولنلتقي بقية السفن سواءً تلك التي أبحرت من تونس أو من إسبانيا أو تلك التي ستبحر من إيطاليا. تواصلت حينها مع أصدقاء من مصر، ومنذ أن أطلقوا مبادرة أسطول الصمود المصري حينها كانوا قد بدأوا العمل على تجهيز السفينة، لنصل جميعاً إلى سواحل غزة. تحوّل هذا الميناء الصغير في جنوب صقلية إلى لقاء للسفن التي تعطلت في الطريق وتحتاج إلى صيانة قبل أن تُبحر مجدداً. بارتابالو بلدة صغيرة عشنا في مينائها خمسة أيام، وكانت السفن فيه مأوى لنا، وأهلها الصقليون والمهاجرون رحبوا بنا عابرين طريق فلسطين. وفيما بعد، تبين أن سفينتنا إضافة إلى سفن أخرى غير مؤهلة، نتيجة للأعطال التي أصابتها، لتواصل هذا العبور. تعود بي تزاريس وجغرافيا صقلية إلى منطقة الوطن القبلي التونسي. لست أول من مرّ هنا، الجزيرة كانت أحد الثغور في عهد الأغالبة في تاريخ أفريقية الإسلامية.

كان مفترضاً بي أن لا أصل، وأن أرجع كآخرين غيري ممن حاولوا أن يواصلوا الإبحار نحو غزة، وفي صقلية لم يعد ذلك ممكناً. سفن تمكّنت من مواصلة مسيرها البحري وسفن تقطعت بها المحاولة على سواحل جنوب صقلية. كان علينا أن ننتقل من بورتابالو إلى مدينة كتانيا، وحينها تنتهي المحاولة بالرجوع إلى حين أن نعاود الكرة مرة أخرى. تكفي المحاولة، ومن واصلوا العبور قبلنا يحملون رسالتنا جميعاً كمشاركين في كسر الحصار وإنهاء الإبادة. وعلى الرغم من ذلك اختلطت المشاعر والتقديرية العقلانية في هذه اللحظة أمام هذه الاستحالة المادية. كثير من الهمّ والحزن نتشاركه هنا لعدم تمكّنا من ركوب البحر مرةً أخرى. في كتانيا، التي كان من المفترض أن تكون محطة للرجوع لتونس، تغيّرت الخطة وتحوّلت إلى محطة لاستئناف العبور. ظللت هناك بعد أن تناهى لي أن أسطولاً آخر سينطلق قريباً. وأنا الغريب هنا. وقّرت ليلة الرجوع ألا أرجع. التقيت ليلتها مصادفة مع أربعة أشخاص كانوا يهتفون لفلسطين وسط ظلام ليل المدينة وضوضائها وأضوائها. تحوّلت هذه الصدفة إلى أمل ينمو من جديد. تركت الطائرة والتذكرة، ومع ساعات الفجر عزمتم نهائياً على عدم الرجوع.

في الصباح الموالي، لم تمنع الأمطار الخفيفة شيئاً مما كان مبرمجاً. ذهبتنا وحضرنا الندوة الصحفية التي عقدت قبل مغادرة سفن ألف مادلين لأكون شاهداً على مشهد آخر لخروج السفن. صرخة مفتوحة أطلقت وتلقفتها قطرات المطر المنسكبة من السماء على الأمواج المتلاطمة في الميناء الذي يستعدُّ لتوديع المغادرين نحو غزة، دوى صداها لدى النقابات العمالية والطلاب. ولحن مرتجل لغيتارة يرافقه أثر من شجن في هذا الصباح. نبحر إلى غزة ليس لإيصال مواد إغاثة إلى غزة وحسب، بل لمساءلة وإنهاء النظام السياسي الذي يؤدّد هذا الحصار المفروض على غزة. هكذا هو الطريق إلى فلسطين، مهما بدأ صعباً ومضنياً ومشحوناً بالتردد بين الآمال واليأس، فإن أمل الطريق يتجدد كلما بدى أنه أقرب إلى المستحيل. مرّت اللحظات ثقيلة إلى حين أن وقع المأمول. انضممتُ إلى سفينة "الضمير" ضمن أسطول الحرية لأستأنف الإبحار مرةً أخرى. وما كان ليوقع هذا لولا تفاصيل منها أعلمه والبعض الآخر يخفى عليّ. الآن أنطلق من أغستو الذي قضيت فيه ليلتين في اتجاه مدينة كتانيا، ثم

أركب الحافلة المتجهة نحو أترنتو. أوصل نحو الجنوب الإيطالي من جزيرة صقلية لأترنتو رحلةً تتطلب اثنتي عشرة ساعة بالحافلة. وصلت في الصباح الباكر، وبدأ الوقت يمرُّ أسرع. الآن نستعد للإبحار يوم وصولي إلى هنا.

تجمّعنا منذ الصباح، والتحقّت لأتعرّف على شركاء رحلة كسر الحصار عن غزة. أشارك مرّةً أخرى الأجواء نفسها للانطلاق وما يصاحبها من مشاعر مختلطة وما يحيط بها من مشاعر التضامن الجماعي التي تخلقها غزة عبر العالم، حيث نجتمع هنا ليلتقي متضامنون من جنسيات وألوان وألسن مختلفة يشاركون إرادة فكّ الحصار وإنهاء حالة الصمت. هنا نفكّ الحصار عن أنفسنا ونحرّرها... هكذا تبدو الطريق لفلسطين وتتّضح مع كل خطوة. أترنتو تبدو مدينة صغيرة تحوّلت إلى نقطة التقاء وانطلاق لنا. تقترب لحظات الانطلاق، ويزداد الشوق للرحلة ولغزة. جاء السؤال مبالغاً لي من قبل الموظف المكلف بختم الجوازات "من أين أتيت؟" كنت في صقلية بعد تعطلّ السفينة التي كنت على متنها مع أسطول الصمود المغاربي. هذا يعني أنني سأنتظر. أجرى عون الجمارك اتصالاً ما ورأيته وهو يقوم بالثبّت من جواز سفري، الذي لم يكن يحمل أيّ تأشيرة أوروبية، ورأيته وهو يقوم بتصويره وإرساله من هاتفه، وكان ينتظر مكالمته هاتفية ويتفقد هاتفه. فطلب مني أن أتحنّى جانباً لأنتظر. انتظرت حوالي نصف الساعة أو أقل، ومرّت الدقائق ثقيلة حتى أخلى سبيلي وأتممت السير على رصيف الميناء لأصعد السفينة لأكون من بين آخر من يصلون إلى هناك. تفقّدت جواز سفري، فلم أجد أيّ ختم به. وهكذا، تخلّصت الإجراءات الإدارية منّي كما تخلّصت منها. ويبدو أن الموظف نفسه أيضاً تخلّص منّي لأجد نفسي عابراً دون أيّ أثر رسمي، فعلى جوازي سفري أنا لم أدخل إيطاليا قط، وكلّ ما عشته لم يقع رسمياً، ولم يحدث قانونياً. المهم أنني أستأنف العبور نحو فلسطين بعد انقطاع. وبلا تأشيرة أوصل الإبحار نحو غزة. والمحطّة الإيطالية من برتابولو إلى كنانيا وأغستو حتى أترنتو لم تكن مبرمجة كما التوقّف في مالطا قبلها لولا أحكام البرّ والبحر.

هذا وداع آخر في ميناء أترنتو للعابرين نحو غزة. تجمّع العشرات من المتضامنين في محيط السفينة في الميناء، وتنوعت المشاعر بين الدموع والأغاني الإيطالية والشعارات الداعمة لفلسطين ولغزة قبل أن تنطلق السفينة. أثر الحرب الصهيونية خلق حالة من الحراك في الشوارع انتقلت إلى الموانئ حيث تنطلق السفن لكسر الحصار. أصبح الشعب الفلسطيني مرئياً بعد عامين من حرب الإبادة، وبعد أكثر من ثمانين عاماً من احتلال استعماري نفذ عبر تاريخه منذ النكبة التطهير العرقي والتهجير. "كيف يستطيع العالم تحمّل ما يحدث باعتباره مشهداً؟" هو أحد الأسئلة الصعبة التي لا تغادرني.

حتى يتّسع البحر لغزة، ولا يكون باب سجنها المغلق

بدأت العبور مرةً أخرى مع سفينة "الضمير"، وأستأنف إبحاري رفقة العشرات من أكثر من عشرين بلداً ولغة. تمّ أيام البحر ولياليه بسرعة وتزاحم بالتفاصيل. أضحت السفينة ملأى بجماعات تتبادل الأفكار والرؤى عن التضامن وأهميته، إضافة إلى تقسيم الأدوار على متن السفينة التي تبدأ بالطبخ والتنظيف والاجتماعات اليومية والتدريب على لحظة الاقتحام المفترضة. كلُّ منّا يعمل على سرد القصة من على ظهر السفينة والتواصل مع الإعلام،³ كما

الأهل والأصدقاء. أخبرتني صديقة من السودان عن فعالية نظمها المحاصرون في الفاشر تضامناً مع العابرين إلى غزة بحراً، إذ يلتقي المحاصرون وتتشابك محاولاتهم للتحرر من فلسطين إلى السودان حيث تموّل هناك حكومة الإمارات، كـ"إسرائيل" صغرى، حرباً لم تنته بعد. وبين الحين والآخر، تعود ذاكرتي إلى أيام صقلية من بورتابالو حتى كتانيا وأغستو وأروي قصتي والقصص الأخرى للمبحرين معي إذ تتقاطع قصص المبحرين وتلتقي في عرض البحر.

نعتمد الآن نفس توقيت غزة لأننا نقترّب كل يوم أكثر من فلسطين. أحداث كثيرة شهدها هذا البحر، وقصة إبحارنا هي إحدى تلك الحكايات. اليوم الرابع كان يوماً مميّزاً، إذ التقينا فيه بالسفن التي أبحرت من كتانيا قبلنا بثلاثة أيام ضمن مبادرة "ألف مادلين" وكنت شاهداً وحاضراً على إبحارها. كان يوماً ممطراً، اليوم أيضاً هنا في البحر. في هذه الرحلة شهدت على وحضرت أكثر من وداع وأكثر من إبحار ومن أكثر من ميناء، سيدي بوسعيد، وقمرت، وبورتابالو، وكتانيا... إلى أنرتتو من حيث بدأ الإبحار الثاني مع "الضمير".

عندما التقينا بالسفن الشراعية، التي شهدت على انطلاقها في كتانيا، لنبحر معاً إلى غزة، منحناً ذلك شعوراً أن هذا البحر لنا وشعرنا أننا لسنا وحدنا، وهذا ما نريده، نريد ألا نترك غزة وحدها. لم يمنحنا سفينة يونانية بجانبنا، اتضح فيما بعد أنها تتبع لخفر السواحل، أيّ شعور بالأمان. تقوم السفينة بمهمّتها الاعتيادية، وهذا ما يعني أيضاً اعتراض قوارب المهاجرين لا إنقاذهم. في غزة تعني السفن الحربية قبالة ساحل فلسطين أن قصفاً آخر يأتي من البحر نحو الفلسطينيين ويستبيح حياتهم، وهو ما لا نريده. هل نعود إلى البحر ليكون ممراً لوصولنا إلى غزة لنكسر حصاراً لم يبدأ مع الحرب التي لم تتوقّف لوهلة؟ وهل نعبّر إلى فلسطين بحراً ليكون البحر لنا حتى غزة ولغزة؟ البحر يتسع هنا للتضامن لا مصيدة للموت ولسياسات القتل سواء "الإسرائيلية" أو الغربية أو الأنظمة العربية التي تطارد المهاجرين عبر خفر السواحل.⁴ هذا البحر الذي يمثّل طريق الهجرات الممنوعة بسياسات عسكرية السواحل وعنصرية الفيزيا الأوروبية وشروط انتقال الموارد الاقتصادية. البحر يتحوّل إلى ما هو أبعد من مبدأ حرية الملاحة، وحقّ العبور، ويخضع لسياسات القوة التي تحددها القوى الكبرى الغربية وتكرّسها الأنظمة العربية التي تبدي الخضوع والتبعية لها وتخشى الوحش الصهيوني الذي كرّس نفسه كشرطي استعماري في شرق المتوسط.

تقطع القلب الآن: قطع من القلب في البحر من جهة اليونان نواصل الإبحار نحو غزة في سفينة "الضمير"، وقطع من القلب مع خبر اعتراض الاحتلال سفن أسطول الصمود العالمي، وقطع من القلب في "الضمير" ومع سفن "ألف مادلين" التي تقترّب أكثر فأكثر من سواحل غزة وفلسطين.

العدو أمامنا جميعاً، فلماذا لا نراه؟

لم أكن أراهم، كنت في هوى بحر فلسطين وئراها حين اقتحم الجنود الصهاينة السفينة، وهي لحظة لم تغادرني البتّة. كيف يمكن أن تظّل لحظة كل هذا الزمن كأنها من السّكرات اللامتناهية؟ الساعة الفجر حين هجمت ثلاث طائرات مروحية وحطّت على رؤوسنا. لم أكن أرى جموع جنود الصهاينة، كنت أرى غزة تقترّب، تملّكتني

ابتسامات على شكل ضحكات خفيفة أو عابرة ما دفعهم إلى تكبيل يديّ ونقلني إلى أعلى السفينة بمفردي. ربما يحاولون اعتقال تلك الابتسامة غير الملائمة لمعتقل جديد. في مقدمة أعلى السفينة تبدت الشمس مشرقةً بهدوء ترافقها أسراب من الطير. لم أر قط هذه الأسراب تحوم فوق رأسي ورأس السفينة إلا في ذلك اليوم. لو لم تنتبني تلك الابتسامات غير المفهومة لما تمّ الانفراد بي ونقلني وحيداً إلى الأعلى، ولولا ذلك لما رأيت ذلك المشهد من الأعلى.

في ميناء أسدود، لم يبقَ مني شيء إلا الزيت. انهال عليّ الجنود بالضرب. عشرون أو أزيد. لم أجد فرصة لإحصاء العدد. كانت العلة القميص: كلمتان خطأً بالأبيض على قماشه الأسود باللغة الإنجليزية: "اكسروا الحصار"، ولا تخطأ البصر ألوان العلم الفلسطيني، ورمز أسطول الحرية. بدأ الأمر قبل أن تلمس قدمي رصيف الميناء. في السفينة عند الوصول، عندما غيّرت القميص أمام عيون الجنود، وبحث عن كوفيّتي الحمراء التي ألقوا بها في القمامة، التفتطها وربطتها بحزام حقيبي. طلب مني جندي أن أنزع قميصي الذي ارتديته، وفي غفلة منه وأمام عيني وجدته قمصان أسطول الحرية عبثوا بها بعد أن فتشوا السفينة. طلب مني أن أرتدي قميصي الأول لمصلحتي. أجبته أنني أعرف مصلحتي. وزاد بالإشارة إلى صديقي عدنان الذي تعرّض للتنكيل قبلي. وبنزولي إلى الرصيف، مقيّد اليدين، انهالوا عليّ ضرباً، ولم أستطع إحصاء عددهم، حتى أوقوني أرضاً، ومزّقوا القميص، ونزعوا الكوفية، وقطعوا أحزمة الحقيبة. فُيدت يداي إلى الخلف بعد أن كانت مقيّدة أمامي، وأحكموا حجب رؤيتي بشريط قماشي. طلبوا منّا أن نجتثوا على الرُكب جميعاً، وأن نخفض الرأس للأسفل. وكلّما رفعت رأسي انهال كلٌّ منهم بالضرب. لم أكن أرى أيّاً منهم، كنت فقط أرقب وأنتظر وأستشعر الضربة قبل أن تصل إلى كتفي ورأسي. صوت ما يقترب، مجنّدة تخاطبني وتقترب لأذني: "علي، قل أنا أحب 'إسرائيل!' " أجبت: أنا أحب فلسطين! وهو ما مهّد لتواصل هي الأخرى الضرب، فلا يحتاج أيُّ عسكري هنا لسبب، فهو آلة بشرية لممارسة العنف المباح.

في أسدود يستمتع الجنود بمشهدنا كمختطفين معتقلين مستقبليّين، وتستعرض علينا دولة الاحتلال فائض قوتها منذ أن اختطفنا من المياه الدولية حتى عُرضنا كمشهد للفرجة أمامهم وفي الخلفية موسيقى عبرية حماسية. الآن رأوا أنهم انتصروا على "الضمير"، هذه السفينة التي شقّت البحر من أجل كسر الحصار عن غزة. لم ينتصروا بعد. لذلك ستتواصل محاولة إشباع رغبة النصر الفائضة لديهم. تحوّلت قاعة الاستقبال في ميناء أسدود إلى قاعة تحقيق وتفتيش مفتوحة لعشرات المشاركين. الآن بإمكانني أن أرى، فقد نُزعت عني غمضة العين. مرة أخرى يجري تفتيش ما تبقى من متعلقات شخصية. كل شيء ممنوع ومصيره الاحتجاز: التبغ، والأدوية، والأقلام، والأوراق. وأكثر ما شدّ انتباههم هو الزيت ودقيق البسيصة، وهي خلاصة قمح وحبوب وبقول، إنها أكلة شعبية تونسية تخلط بزيت الزيتون. غريبة عداوة دولة الاحتلال لزيت الزيتون ولنعم الأرض من الحبوب. عبرتُ ومعني زيت الزيتون ودقيق البسيصة. تتمّع الشرطة قارورة زيت الزيتون، وفجأة تلقي بها دون سابق إنذار أو تبرير في ما يبدو أنه سلّة مهملات للممنوعات. هكذا أصبح زيت الزيتون ممنوعاً. هذا هو "مدّ الزيتون في الرّيت" كما وصفته عجوز في الانتفاضة الأولى لحسين البرغوثي.⁵ أما خلاصة الحبوب والبقول من الدقيق، فقد أثارت وحدها لغماً دفع المجنّدة لطلب الانتظار منّي ومنها الذهاب والمجيء وهي تحاول فكّ طلاسّم هذا المسحوق الذي

يرافقي. هنا تذكّرت صديقي عمر الذي أعجب بالبيسة عندما تذوّقها أول مرة عندما التقينا خارج غزة. أما الجنود هنا فضاقوا ذرعاً، ولم يطمئن بالهم إلا بعد أن أكد أحد رؤسائهم أن لا خطر فيها. هنالك في أسدود رأيت عبور مدّ زيتون تونس في الزيت لفلسطين رغماً عن جيش الاحتلال وشرطته.

على الرغم من آثار الضرب الذي انهالوا به عليّ كلّما تقدّمت في مسار الفحص والتفتيش والتدقيق، أصابني ما أصابني من رؤية الزيت وهو يعبر بي. بعدها نُصبت طاولات التحقيق الجماعية. أنتظر دوري لأقف أمام محقّق الشرطة الذي لا صبر له لينتظر المحامي، فقد كان يتمّ تحقيقاً آخر بسرعة. ساعة محقّق الشرطة تمرّ سريعاً مشيراً بيده بضرورة الإسراع أو أنه سيبدأ التحقيق. خُفّف عني الحديث مع المحامي الفلسطيني بصوت خافت أمام أعين وأذان المحقّق وهو يقدم بعض النصائح للأيام القادمة من سطوة هذا النظام الجنوبي الذي رأيته يتجلّى أمامي. يستعجل محقق الشرطة ثانيةً بعصبية المكزرة ليسألني عن سبب قدومي إلى دولة "إسرائيل" وكسر القانون "الإسرائيلي". أجيب أنني لم أت إلى هذه الدولة، وإنما جئت إلى غزة لأكسر الحصار غير القانوني وغير الشرعي وإنني أختطف من المياه الدولية وأُتي بي إلى هنا. يسألني عن الإمضاء على وثائق، وخاصة وثيقة قبول الترحيل الفوري. أردّ بأنني لن أمضي على أيّ وثيقة، وهو ما يعني أن أنتظر مقابلة القاضي. ينتهي التحقيق هنا، ويعلمني المحامي أن أنتظر زيارته في السجن عند القاضي. تنتهي طقوس الحالة القانونية التي حاول الاحتلال أن يصبغ بها الأمر الواقع. يُعاد تكبيل يديّ للخلف ووضع لفافة القماش حتى لا أرى بعد أن رأيت وعبرت الطريق. ومع مرور كلّ متر يسلمني شرطي لآخر، وكل منهم يزيد من شدّد وثاق يديّ بذلك الرباط البلاستيكي الذي لا يشبه إلا دولة الاحتلال المثبتة بالبلاستيك، وهي تزيد من شدّد وثاقها أكثر فأكثر بكل الوسائل القتالية وحروب القتل والإبادة حتى لا ينفرد عقدها كالبلستيك الذي يشدّد يديّ، وعلى الرغم من شدته عليّ فهو مجرد بلاستيك. هذا التحوّل من قيود الحديد إلى قيود البلاستيك التي تشدّد بها معاصم الأسرى الفلسطينيين يهدف به الاحتلال أن يوقع أفدح الأذى بالإنسان لإمكانية تشديده حول المعصم بلا حدود. وهذه الحدود التي يشعر بشدّتها الإنسان تعكس التحوّل من دولة الحديد إلى دولة البلاستيك. وهذا الأمر لا يتعلّق بحالتها المادية، وإنما بالحالة النفسية والمعنوية التي تبلغها.

يزيد رباط البلاستيك الضغط على معصميّ ويديّ خلفي وأنا لا أرى، لأجد نفسي في صندوق حديدي مظلم. أحاول تنشيط سمعي والتمعّن أكثر، ومن خلال الأصوات فهمت أنني في عربة ترحيلات مع بعض الزملاء الذين كنّا معاً على السفينة نفسها. استعنت بصديق إيطالي لينزل اللفافة التي وُضعت حول عينيّ، إذ كما لاحظت ولاحظت من بعده أنني الوحيد الذي كُبلت يده للخلف. عندها استطعت أن أستطلع من حوليّ من رفاق هذه الرحلة نحو سجن "كنسيعوت"، هكذا تهامس الرفقاء هنا.

فلسطين وطريق الجغرافيا المستعمرة التي لا تطمئن أبداً رغم كل ما أوتيت

مظلم وبعيد ليلاً الطريق نحو صحراء النقب من أسدود على الساحل الفلسطيني الجنوبي غير البعيد عن غزة. لم نصل غزة بعد لكن اقتربنا أكثر هذه المرة. لم يحط بنا غير الأسوار والجنود. أتحنّس تفاصيل طريق لا أراه،

وتتسرب لي عبر سياقة هوجاء. يزيد من التوتر ضغط القيد، وأبحث عن وضعية لإسناد ظهري، لكن القيد يمنعني ويجعل الأمر أصعب. أسند ظهري لصديقي الإيطالي فنشيسيو، يضيء شيئاً من الطرافة على هذا الموقف وهو يطالع محاولاتي لا تكاء على ظهري تحول بينه وبين يداي. بوصولنا إلى "كتسيعوت" يطغى الضوء الأبيض الصناعي، إفراط في استعمال الإضاءة تتيح للسجانين وضع الجميع تحت دوائر الضوء اللامتناهية. يُزجُّ بنا في أقفاص حديدية، وجبة جديدة لجنود ينتظرون مشهداً يتلذذون من خلاله بضحاياهم ويعدمون إنسانيتهم. لسنا أول وجبة ولا الأخيرة لهؤلاء الجوعى لنزوات الاستمتاع برؤية معتقلين تحت تصرّفهم. يُرمي بي في قفص فردي بعد أن كنت في قفص جماعي. مشهد مكرّر آخر ينتظره الجنود لكلّ قادم إلى المعسكر الصحراوي الذي يعود تاريخه للانتفاضة الأولى في العام 1987. يحتاج السجان أن يكشفك تماماً لسلطته المجردة من أيّ إنسانية، فأنت فلسطيني تماماً ولو للحظات. يتعدّى الاعتقال على الروح قبل الجسد، ويسعى جاهداً لنزع إنسانية الإنسان. كل يوم يعيش الأسرى الفلسطينيون بشكل غير مرئي ومعرضين فقط لمشاهدة جلاّد قرّر أن يتخلّى عن إنسانيته باختياره أن ينزع إنسانية الفلسطيني.

يصرّ الشرطي على إبقائي جاثياً على ركبتي ويديّ خلفي مخفضاً رأسي للأسفل للألمس الأرض. أنتحوّل إلى مجرّد متعلّق من متعلّقات المعتقل لا إنساناً قادراً على التواصل مع جسده، وأعزل، وفي لحظة ما يقرّر جسدي رفض هذا التجريد. أمّدُ رجليّ وأنهي هذه الوضعية. لا يخطر ببالي شيئاً إلا إنهاء مشهدية لم يعد جسدي قادراً على أدائها كما يتوقّع مني من يرقب حركتي إشباعاً لفائض القوة لديه. يدافع الجسد عن روح لم تستطع تحمل اللذة النظامية التي تمهّد للتحكّم في الحركة.

يلقى بي في إحدى هذه الزنازين، ويخبرني أنطوان أنه وصل هنا أولاً ثم عدنان. يحاولان الاطمئنان عليّ إذ يبدو إنهم في اللحظات التي قضيتها مغمض العينين كانوا يرون ما يحصل وهو ما لم أستطع رؤيته. نتشارك تفاصيل عمّا مضى من ساعات الوصول إلى أسدود حتى النقب. تشهد الجدران هنا على من مؤّوا، أسماء وعبارات خُطّت على كل ركن من الجدران الأربعة، "عراية جنين"، "قباطية"، "خان يونس"، "جباليا"، "محمد زعرب"، "آية الكرسي"، عبارة "باقون ما بقي الزعتر والزيتون". رسائل من خارج السجن مدوّنة تحت القصف الصهيوني للدوحة تثبت أنها لا تعود لفترة بعيدة. تروي الجدران الأسماء والأمكنة والأخبار والآمال. هنا يصبح لكل كلمة معنى وقيمة، وكل حرف هنا شهادة على محاولات صمود ونجاة وتحّد للضيّق المكاني والحيز الزمني المعتقل.

يختلط الوقت، وفي الليلة الأولى في النقب أو الثانية أعرّض على القاضي. في إحدى زوايا المعتقل مكتب صغير من البلاستيك، وبنفس رداءة الإضاءة العالية، لا يدلّ شيء على أنه قاضٍ. يسألني في غياب المحامي الأسئلة نفسها عن سبب خرق القانون ودخول دولته بشكل غير قانوني، وأجيبه الإجابة نفسها: وجدتني هنا في دولتك رغماً عنيّ، واخْتُطفت من البحر. أتيت إلى غزة لكسر حصار مفروض، يخالف كلّ موثيق لا تعني للقاضي شيئاً. يزيد القاضي سؤالاً آخر لم أتوقّعه لجهله الغريب وهو يتفحص جوازي: هل السفر من تونس إلى إيطاليا يتمّ دون تأشيرة؟ تكشف هذه الرحلة تناقضات الحدود والحصار واللامساواة بين البشر حسب ألوانهم وجوازاتهم. أستفيد من جهله،

وحتى لا أدخل في محاوره معه في القانون بإجابتي أن السفر عادي ولا يحتاج شيئاً من تونس إلى إيطاليا، فتعمرني حالة من الفوز الصغير على تجاوزي الحدود. ويشير مجدداً أنني اعتديت على أحد زملائه. فيتجاهل القاضي ظاهرياً هذا التدخل المفاجئ. ويعرض عليّ مجدداً أن أمضي على وثيقة الترحيل الفوري، فلا أقبل. أعود إلى الزنزانة ولا أعلم كيف مرّت هذه الليلة الأولى. في مساء اليوم الثاني ننقل إلى قسم جديد على ما يبدو. دائماً تحتاج دولة الاحتلال إلى بناء السجون أو توسعتها. وعلى عكس الزنزانة القديمة المعزولة، يتيح هذا القسم التواصل مع بقية الزملاء عبر الصراخ أو الغناء أو التكبير أو النشيد. بنقلنا ثلاثتنا هنا أدركننا عزلنا الأول وأن الغرف المجاورة تضم عدداً أكبر من غرفتنا. لقد خُفّ العزل بمجاورتنا ومقابلتنا للغرف الأخرى.

في اليوم الموالي يطلب منا السجّانون الاستعداد للخروج، ولم يكن واضحاً إلى أين يأخذوننا. حُملنا مرّة أخرى في عربة الترحيل، والتقيت بزملاء لم ألتق بهم منذ الاقتحام في عرض البحر. في الطريق ألصقت عينيّ للثقب الذي في العربة وبطلّ على الخارج أراقب شوارع فلسطين وجغرافيتها في النهار أول مرة. نمّرُ عبر الطريق من الجنوب نحو الوسط وتترأى إشارات لأسماء القرى والمدن في الداخل الفلسطيني المحتل. فلسطين دون غرة، مستعمرات ومركبة وأسماء قرى عربية تشهد على مسار تطهير الأرض من البشر ومن فلسطينيّتها. يافا-تل أبيب" توضعان الواحدة إلى جانب الأخرى وتتغيّر أرقام الكيلومترات المتبقية من الثمانين إلى الثلاثين فأقل... وسرعة السائق الجنونية، غير آبه بما احتواه هذا الصندوق الحديدي وبمن يقبع في الخلف ورغبتهم في استراق النظر، دون توقّف إلا عند ازدحام حركة المرور. تشير اللافتات إلى الرملة واللدّ، يدخل بنا إلى ما بان كسجن مسوّر. بوابات لا نهاية لها، بوابة تلو أخرى. وصلنا إلى هذا المعتقل الذي لم أتّبين مكانه هل هو اللد أم الرملة. أدرك فقط أنه بينهما، وتبدأ مرّة أخرى إجراءات التفتيش والتدقيق من الملابس والهويات التي حُجزت أصلاً. أنادى هنا باسمي، العربي، التونسي، وأحياناً الفلسطيني. اختلط عليهم الأمر، فالفلسطيني عدوهم الأبدي. شعرت أنني فلسطيني شيئاً ما. ألقى بنا الجنود في غرفة تضمّ حوالي أحد عشر شخصاً ممن كنّا قد التقينا معهم في سفينة "الضمير" وسفن مبادرة "ألف مادلين". البقاء هنا انعزال عن كل ماهو خارج عنا ليصبح كلّ امرئ داخل متعدّد يتجاوز ضيق السجن. ننتظر قرار القاضي، ونخرج إلى فسحة الفورة مرّة واحدة كلّ يوم. أما في اليوم الثاني، فكانت كلمتان كفيلتين بمنعي من التمتعّ بهذه الفرصة: هتفت "تحيا فلسطين" في الرواق بين الغرفة والساحة الصغيرة المغطّاة بالأسلاك، فأزعج ذلك حارس السجن وطلب مني الرجوع إلى الغرفة فوراً. لكلّ كلمة هنا معنى، ولا كلمة بلا معنى أو حساب.

بعد أكثر من يومين علمنا أننا سنخرج، قد نغادر هذا السجن، تغمزنا فيما بيننا. تكرّرت نفس إجراءات التفتيش والإحصاء الممّلة والتي لا يقطع ملهها إلا همساتنا الخفية وحواراتنا التي يقطعونها بقرع الأبواب، ولا نصمت. مع الفجر بدأ تكرار الروتين الذي يمارسه السجّانون ولم ينتهِ إلا بعد ساعات. قُيدت أيدينا وأرجلنا بأصفاد الحديد. وحتى آخر لحظة يصرون على ممارسة القوة الفائضة ولا يفوتون أيّ فرصة لإثبات ذلك.

رأيت وجهاً لوجه الاستعمار وكيف يخنق مساحات تبدأ من السجون والمعازل ولا تنتهي عند الاستيطان والعزل الجغرافي. استعمار يحاصر كل الجغرافيا الفلسطينية بأساليب تتشابه في جعل كل فلسطين سجناً لأهلها محاصرين ومعزولين من دولة مسلحة بالإبادة والسجن وتطويق التفاصيل. للفلسطيني ذاكرته التي تقاوم كل ما يقوم به المحتل ويزيد تغذية هذه الذاكرة. هنا يفشل المستعمر، وتولد مساحات لمحاولات التحرر لا تنفك تعيد الولادة. يبدأ ما ندرك أنه الطريق من السجن إلى الحدود الأردنية، أو هكذا حُبل لنا. الخروج من السجن هو خروج من عالم لآخر. لم ألتق الأسرى الفلسطينيين، لا بد أن الطريق في عربة الترحيل هو لحظتهم للخروج لرؤية العالم الخارجي. هكذا استلطنا أن نشبث بعضنا ببعض الآخر في العربة، واستلطنا أن نقتفي الثقوب التي تطلنا على الطريق وتفاصيل فلسطين. أقل من ثلاثين كيلومتراً عن القدس، وأسماء لقرى الداخل الفلسطيني ولمدن ومستعمرات "إسرائيلية" لم أستطع قراءة أسمائها كاملة... إذ منعتني السرعة التي يقود بها السائق وهو يقرع الحديد كلما ارتفعت أصواتنا.

فقدان "إسرائيل" السيطرة على السرد التمهيد للخروج من التاريخ، والقلق على الجغرافيا

إلى أي فلسطين نعبّر اليوم؟ لسنا أول العابرين. لقد حاولت الأجيال عبر التاريخ العبور إلى فلسطين عودة إلى الأرض المحتلة من أجل المشاركة في التصدي للاحتلال وبحناً عن الأرض والذاكرة، ومن أجل فك الحصار الذي لم يبدأ اليوم. الحصار اليوم يتغذى على أقسى أشكال العنف الحدائي المسلح بالتكنولوجيا الاستعمارية التي ما يفتأ يجربها ويختبرها على الأجساد كما الأرواح ليحكم هيمنته العسكرية وليكرس تفوقه بفائض القوة التي تُمنح له عبر الدعم الغربي والصمت والتواطؤ من الجوار العربي الذي يخشى الوحش الصهيوني. إنه الوحش الذي يخطط ويتمدد في الحرب كما في السلم أو الهدنة، وهي حرب مستمرة فلا هدنة ولا سلم لديه أبداً. إنه في كل لحظة يتمدد ويعلي أسوار المستعمرة ويقضم الأرض ويستعيد صورته عن "إسرائيل الكبرى" التي لا حدود لها. "إسرائيل" تقف في الباب وتقتحمه كلما استطاعت. إنها تدخل علينا من الأبواب التي تفتحها والثقوب التي تحدثها في الجغرافيا وفي النفوس، ولكن ذلك لا يجعل من محاولات العبور وفك الحصار خياراً، بل هو قرار مواجهة لها قبل أن تزيد من الانقضاء علينا جميعاً مهما ظننا أنها بعيدة. "إسرائيل" أضحت تحيط بنا من كل جانب، وهي أقرب وتقترب على قلق من جغرافيا أكثر اتساعاً لم تستطع أن تأمن بها أو أن تستقر.

"إسرائيل" تخرج اليوم من السرد أو تفقد السيطرة على السرد. هذا ما رأيته في السفينة في محاورة فنشيسيو مع الجنود العائدين من جباليا وخانيونس، الصهاينة الذين يتمسكون بحقهم التوارقي في القتل. على امتداد الجغرافيا الفلسطينية من القدس إلى النقب ومن الضفة إلى غزة. وتلك مفارقة تبدو أكثر إرهاباً، فالخروج من السرد والحكاية يترافق مع قضم في الجغرافيا. في عربة الترحيلات، كنت أرى في طرق فلسطين كيف تخترق علامات الطرق والمدن المستوطنة الأرض جاهدة أن تنزع عنها فلسطينيتها، حيث تهدد القرى في النقب

والجليل بالهدم، وتخرق المستوطنات مروج فلسطين وسهولها وترتبع على صدر فلسطين من الجبل إلى البحر. وأنا أرقب المشاهد من عربة الترحيلات تذكّرت توصيف المخرج جان لوك غودار عند زيارته فلسطين المحتلة أن "إسرائيل"، في استعارة من السينما، هي الفيلم الروائي وفلسطين هي الفيلم التسجيلي. كان ذلك ما سرّرت لي في تلك المشاهد التي رأيته. إن كل ما رأيته هو استديو مرگب للتصوير، وبعد ذلك سيتمّ تفكيك الاستوديو، أي "دولة إسرائيل". وأتذكّر ما شاهدت وما سمعت، كصوت الأذان في السجن. كان ذلك ما عرفت فيما بعد أنه اليوم الأخير في فترة الاعتقال القصيرة جداً بالزمن العادي والمكثّفة بالزمن السجني أو "الموازي" كما يسمّيه وليد دقّة⁶. وهي الفترة التي قضيناها عندما فُتح باب غرفة السجن لتبدأ إجراءات الخروج المطوّلة من التفتيش إلى العدد وإحصاء الأنفاس والأرواح. كان اليوم الأحد والزمن الفجر، وصدع صوت الأذان مقتحماً أستوديو سجن الدولة النووية المسلّحة بأعنى أنواع التكنولوجيا، متجاوزاً الأسوار التي تحجب كل شيء لدرجة أنه عندما صعد أحد الزملاء لاستطلاع المشهد من النافذة بصعوبة لم ير شيئاً غير الأسوار المتسلسلة والمتتابعة. ما زال الأذان يباغت الجنود ويعرض عليهم حقيقة واحدة: أن المحتلّ أكثر ما يخشاه هو أن يستعيد أصحاب الأرض أرضهم فجأة.

لم أكن أعرف حينها أن المكان هو الرملة، لكن عرفت في الطريق من سجن "كتسيعوت" الصحراوي أن هذا المكان يقع بين اللد والرملة من خلال اللافئات المرورية، ولم أتمكّن من تحديد المكان بدقة حينها، وبقيت متشكّكاً. ولم أتيقن بعد فالصورة لم تكن واضحة والمشاهد مسترسلة وسريعة مع سرعة السائق. حاولت بعد الخروج إعادة تركيب المشهد مرّات متكرّرة. بحثت فيما بعد في مواقع الخرائط، وتواصلت حيرتي وتشتّتي. تواصلت فيما بعد مع الأسير المحرّر رائد الشافعي، وحينها قطع شكّي باليقين، إنه سجن الرملة، وهو مجمّع سجون ومراكز توقيف. في الرملة كنت أنتظر وليد دقّة الذي بدأت مشروعاً بحثياً مقتفياً أثره أبحث عنه منذ مدّة، لكنني لم أعلم أن وليد كان هناك أيضاً. سجن الرملة هو مجمّع سجون الرملة وفيه مستشفى على شكل مسلخ للسجناء، ومركز للترحيل، وهو السجن الذي مكث فيه وليد دقّة "أبو ميلاد" قبل نقله إلى سجن "جلبوع" بناء على طلب رفاقه من المعتقلين الفلسطينيين. في سجن الرملة كنت أنتظر وليد، لكنه هو أيضاً كان ينتظري دون أن أعلم. كان وليد هناك، كنت هناك حيث كان وليد. انتظرتني وانتظرته، ولكن لم نلتقي. ألم نلتقي حقاً؟ التقينا دون أن يعرف أحدهما حين ذلك. الآن أدرك اللقاء مع وليد لم يكن أول لقاء كما يبدو. سبق أن التقينا كثيراً. كان لقاء أصدقاء قدامى انقطعوا أو انقطعت لقاءاتهم وعاودوا اللقاء. في انتظار وليد دائماً. إنني أنتظره وأرجوه أن ينتظري لنتقي مجدداً

